عبد الحميد بن هدوقة: ذكرى مسيرة مثقف وطني وسيرورة وعي منفعل وفاعل

عبد الحميد بورايو

جامعة الجزائر

أذكر أن اسم عبد الحميد بن هدوقة كان يتردد على مسامعي عن طريق الاذاعة منذ العاشرة من عمري، في مستهل الستّينيات، اقترن هذا التردد بانبهار ودهشة وانجذاب نحو جهاز الراديو، كنت وقتئذ واحدا من أبناء الفلاحين الصغار القاطنين في منطقة الوسط التونسي، حيث كانت تعيش جالية جزائرية مهاجرة كبيرة العدد. وكانت عائلتي من بين هذه العائلات التي اضطرتها ظروف العيش والضغط الاستعماري في نهاية القرن التاسع عشر وبداية هذا القرن إلى النزوح شرقا بصفة تدرجية من جبال جيجل إلى قسنطينة، ثم إلى الشمال الشرقي القسنطيني، وانتهى

بها المطاف إلى القطر التونسي. كان جهاز الراديو في تلك الأيام شيئا جديدا بالنسبة لنا ومبعثا للانبهار والدهشة ومتعة الاكتشاف. كانت متعة الاكتشاف هذه بالنسبة لي مضاعفة؛ لأني كنت في مرحلة من العمر تتوق فيها الروح إلى معرفة العالم والانفتاح على الحياة وعلى كل جديد. أذكر أن الأجهزة الأولى المستقبلة للبث الاذاعي التي امتلكها بعض المحظوظين من أهلنا وجيراننا في الوسط الريفي الذي كنت أعيش فيه كانت موضوع عناية خاصة، وكان أهم حافز لاقتنائها وقتئذ تمثل في متابعة أنباء الثورة والاستماع لصوت الجزائر الذي تبثه جبهة التحرير الوطني عبر وسائلها الخاصة أو عن طريق أجهزة البث الاذاعي التونسية. كان يتم شراء أجهزة الراديو عن طريق الاقتطاع من النفقات العائلية الضرورية وعن طريق الاستدانة أحيانا وعلى حساب المؤونة السنوية من الحبوب المدخرة. كنا نتصيّد الفرص المناسبة والمتاحة أو نختلقها لزيارة من كان له الحظ في امتلاك جهاز راديو، وأحيانا نستدعيه لبيوتنا لشرب الشاي من أجل الاستماع لما يبثه هذا الجهاز، وخاصة ما يتعلق بأنباء الثورة ونشرات الأخبار. في مثل هذا الجو انطبع لأول مرة اسم عبد الحميد بن هدوقة في ذهني، كنت أترقب في شوق المسرحيات التي كان يعدّها في الاذاعة التونسية، لم أكن أعرف وقتئذ أنه جزائري مثلي وأنه من منطقة محاذية لمنطقتنا وأننا نشترك في معاناة حنين جارف إلى وطن مسلوب وأرض حرمنا الاستعمار من نعمة العيش عليها. كنت فتى يتخطى العاشرة من عمره، مقبل على كل ما من شأنه أن يساهم في سد احتياجاته المتزايدة ذات الطبيعة المعرفية والثقافية والنفسية، وفي مرحلة تشكل وعيه الذاتي بمحيطه وبهويته في ظروف بعث وطني وقومي نابع من الصراع المرير الذي تخوضه الجماعة الوطنية ضد الاستعمار ومن التحدي الذي ترفعه في وجه ظروف انتكاستها ونمط حياتها الموروث عن عهود التهميش والجمود والخمول

والواقع الكولونيالي المفروض. كان عبد الحميد بن هدوقة حينئذ من أفراد النخبة الشبانية الوطنية التي تكونت في خضم هذا الصراع وتشكل وعيها الوطني من خلال الممارسة المعاشية والسياسية والثقافية؛ كان وعيه يمثل بؤرة التحام الحركة الوطنية السياسية الحديثة (كان مناضلا في صفوف التنظيم الطلابي لحركة انتصار الحريات الديمقراطية ثم في جبهة التحرير الوطني) بالتنشئة الثقافية المتعددة المصادر: 1 - تعليم تقليدي موروث (عن طريق الوالد) 2 - تمدرس ابتدائي ثم بعد ذلك تكوين مهني وتقني في المؤسسة الفرنسية 3 - تعليم متوسط في مدارس جمعية العلماء 4 - تعليم عالي عام ومتخصص في المؤسسة التعليمية الحديثة التونسية المزدوجة اللغة. كانت جميع هذه المصادر التي تبدو لأول وهلة متناقضة تتألف لتصب في نفس المجرى وهو الوعي المتحول المنبثق من ميراث حضاري عربي اسلامي يتعرض للتكييف والعصرنة والمثاقفة ويتجه نحو الانسكاب والتبلور في شخصية مشروع مثقف جزائري متجذر في محيطه الخاص والعام بجميع معطياته التاريخية والراهنية والمبشرة بصيرورة مستقبلية لمجتمع يطمح إلى اللحاق بركب الحضارة الحديثة في مرحلة ما بعد الحرب الثانية. استطاع الشاب عبد الحميد بن هدوقة في منتصف الخمسينيات أن يكتسب الأدوات الثقافية التي أهلته لأن يمر إلى مرحلة العطاء والمساهمة الفعالة في تشكيل الوعي الثقافي عن طريق الانتاج الاذاعي. استمر في بث انتاجه من خلال الاذاعة الجزائرية الناشئة في فترة ما بعد الاستقلال، وكان من الاطارات العالية الكفأة ذات التكوين الاحترافي الممتاز التي عوضت الطقم الاستعماري في هذا الجهاز ذي الأهمية الاعلامية والثقافية الكبيرة في مرحلة تنصيب أجهزة الدولة الجزائرية الوليدة. كان جهاز الراديو وقتئذ من الأشياء الثمينة التي تحرص كل بيت على امتلاكه، وكان يمثل الوسيلة الاعلامية والثقافية والترفيهية الرائجة بين المواطنين

لأن التلفزيون لم يعم في تلك الفترة كما أن السينما والمسرح كانا في متناول فئة قليلة تقطن المدن الكبرى.

منذ منتصف الستينيات أصبح في مقدوري الاطلاع على إنتاج عبد الحميد بن هدوقة المكتوب من خلال الصحف والمطبوعات.. وكان لهذا الكاتب دور كبير في تكوين الوعي الأدبي لجيلي - الذي يطلق عليه في الصفحات الثقافية للجرائد العربية الجزائرية «جيل السبعينيات». عبرت كتاباته عن هموم المجتمع الجزائري وانشغالاته في مراحل الثورة وما بعد الاستقلال، جسدت المعاناة القاسية لظروف الحرب وأهوالها، والحلم بالحرية وبناء الوطن الحديث، وكذلك الاحباطات التي اعترضت مرحلة تحقيق الأحلام لما تكسر جزء منها على أرض الواقع بسبب الوضع الاجتماعي والسياسي الذي آل إليه أمر بناء المجتمع الجزائري الحديث. اتجه عبد الحميد بن هدوقة إلى تمثيل الصراع الاجتماعي الحادث بين القوى المستفيدة من مقاومة التغييرات الحاصلة في المجتمع وتلك التي تسعى إلى الانطلاق نحو آفاق الحرية واللحاق بركب المجتمعات الحديثة من أجل خلق شرط أنسب لحياة الفرد الجزائري. مثل أدبه مصدرا ثريا ساعد جيلنا على بلورة رؤيته للواقع وللماضي وللمستقبل من خلال بعض الأدلوجات التي جددت نظرتنا لما يحيط بنا ولتوقعاتنا وطموحاتنا. وفر لنا ممارسة جمالية مناسبة لمستوانا ولامكانياتنا التي أتاحتها لنا شروط وقنوات التلقي المتوفرة وقتئذ: المنظومة التعليمية بجميع مستوياتها والأجهزة الاعلامية والثقافية التي كانت مسكونة بهواجس «الثورة» و«التنمية» و«التعريب» و«استرجاع مظاهر الهوية المسلوبة في الفترة الاستعمارية». عالج أدبه موضوعات كانت تشغلنا، وطرح وجهة نظر في الصراع الحاصل في المجتمع حول مسائل مختلفة مثل «التطور» و«المرأة» و«الاشتراكية»، كانت جزءا من حياتنا اليومية؛ وهي وجهة نظر نابعة من التمازج

الخلاق بين الثقافتين العربية الاسلامية والغربية الحديثة، وهو الموقع الذي كانت تتجاذبنا مكوناته في هذه الفترة بالذات.. كان الأدب الجزائري المكتوب باللغة العربية حينئذ يطمح لأن يجد موضعا مناسبا في رقعة الأدب العربي الحديث، وكان قد حرم سابقا من المواكبة الحقيقية والمساهمة الفعلية في نموه وفي تأسيس مدارسه وازدهار تياراته وتجريب أشكاله الجديدة.. كانت كتابات عبد الحميد بن هدوقة في طليعة الكتابات التي وضعت اللبنات الأولى لتحقيق هذا الطموح، وكانت هذه المسألة تمثل انشغالا من انشغالات عدد متزايد من طلبة معاهد اللغة العربية وآدابها بالجامعة الجزائرية حيث كانت تهيمن على برامجها في الأدب الحديث النماذج المصرية. لهذا كله لما ظهرت روايتا «ريح الجنوب» لعبد الحميد بن هدوقة و«اللاز» للطاهر وطار كان الحدث في حد ذاته يمثل فتحا جديدا بالنسبة لنا ومبعثا للشعور بالفخر والاعتزاز ورد الاعتبار للذات الثقافية والأدبية.. ها نحن أصبحنا نقرأ أدبا حديثا في مستوى ما كان متداولا في البلاد العربية الأخرى من الناحية الجمالية والابداعية، ويثير قضايا مندرجة في سياق حياتنا الراهنة.

في بداية السبعينيات بدأت مجموعات من طلبة معاهد اللغة العربية وآدابها تتجه إلى بلدان المشرق العربي من أجل مواصلة الدراسات العليا وتحضير رسائل جامعية حول موضوعات أدبية، وكانت القصة الجزائرية من بين المجالات التي اتجه بعض الطلبة إلى معالجتها، وكانت انتاجات عبد الحميد بن هدوقة من بين هذه المواد التي لقيت عناية خاصة لما لها من قيمة أدبية وجمالية مميزة، وأذكر هنا على سبيل المثال لا الحصر رسالتي ماجستير واكبت شخصيا مراحل اختيار الموضوع وتهيئة مواده والشروع في تحريره، وهما: رسالة عبد الله بن حلّي حول: اتجاهات القصة العربية في بلدان المغرب العربي، ورسالة الأستاذ الطاهر روابنية حول: الاتجاهات الايديولوجية في الرواية المغاربية. تمت مناقشة

الرسالة الأولى بجامعة عين شمس سنة 1976، بينما نوقشت الثانية بالجزائر في مستهل الثمانينيات، إذ لم يتمكن صاحبها لأسباب خاصة من إتمامها بالقاهرة، فنقل التسجيل إلى جامعة الجزائر. اتصلت بالأديب عبد الحميد بن هدوقة بصفة شخصية لأول مرة سنة 1976 بتكليف من الأستاذ الطاهر رواينية بغرض إجراء حوار حول إنتاجه الروائي. استقبلني بمقر عمله حينذاك لما كان مديرا للبرامج الفنية بالإذاعة بشارع خميستي وتحاورنا مطوّلا حول إنتاجه القصصي والمسرحي الإذاعي بصفة عامة وحول رواية ريح الجنوب بصفة خاصة، سوف أقتصر على تقديم موجز لما استخلصته آنذاك من هذا الحوار وما يزال عالقا بذاكرتي:

- لم يكن عبد الحميد بن هدوقة ذلك الإصلاحي الذي يسعى إلى التوفيق بين المتناقضات عن طريق نوع من الفكر النقدي المهادن كما كان شائعا عنه في بعض العروض والدراسات النقدية المنشورة في الصحف وحتى في بعض الرسائل الجامعية. بل كانت كتاباته منبثقة من فكر ثوري ذي توجه جذري يؤمن بالمستقبل وبالعلم والانسان، إيمان لا يصدر عن دوغمائية، ولا يختفي وراء شعار جاهز، بل يصدر عن موقف وجودي وقناعة صادقة ومعاناة شخصية.

- تمثل قضية المرأة في المجتمع الجزائري انشغالا أساسيا لدى عبد الحميد بن هدوقة، ولعل معاناته الشخصية في علاقته بالمرأة في وسط محافظ يكبت الحريات الشخصية ويفرض معاملة خاصة للمرأة ومواصفات لنمط سلوكها العام كان عاملا أساسيا في موقفه الثوري من هذه المسألة.

- يمثل التمازج بين النمطين الثقافيين التقليدي والحديث عامل ثراء وتوازن في

وعي عبد الحميد بن هدوقة، ولم تكن المثاقفة بالنسبة له عامل ازدواج شخصية كما حصل لغيره.

- يمثّل موقفه من مسألة علاقة الإنسان بالأرض موقفا نابعا من معايشة حقيقية للوسط الفلاحي الجزائري، وليس مجرد موقف إيديولوجي كما ذهبت إلى ذلك بعض الدراسات.

- إن مؤهلات عبد الحميد بن هدوقة ومعايشته للمرحلة الأخيرة من الحركة السياسية الوطنية ونضاله في صفوف جبهة التحرير الوطني وعلاقاته بذوي النفوذ في الثورة وفي سلطة ما بعد الاستقلال تؤهله لارتقاء سلم المناصب القيادية في الدولة الجزائرية في مرحلة ما بعد الاستقلال، غير أن تواضعه الجم وحرصه على موقعه كمثقف غير قابل للتدجين ونزاهته حالت دون ذلك خلال ثلاثين سنة من حياته ومن تاريخ الجزائر. وبعد ترشيحه للقيام بمسؤوليات سياسية بعد التسعين، في خضم صراعات سياسية مصيرية، واضطلاعه بها على أكمل وجه، رغم قصر المدة، إدراكا منه لما حصل من تغيرات جذرية في المحيط السياسي الوطني ولإمكان تغير حقيقي في العمل السياسي الوطني، رغم الأخطار التي أحدقت بتحمل المسؤولية السياسية في هذه الفترة الحرجة من حياة الأمة الجزائرية.

- إن خوض تجربة المغامرة الشكلية والجمالية في نطاق كتابة الرواية خضع عند عبد الحميد بن هدوقة لتقدير نوعية المتلقي ومستواه العام، وما ألفه من أشكال القص، ولهاجس الحرص على وصول الرسالة المبثوثة عبر العمل الأدبي، لهذا جاءت تجربته الروائية وخاصة في ريح الجنوب متسمة بهيمنة طريقة القص التقليدية. لم يكن ابن هدوقة جاهلا لمرحلة تطور الرواية الغربية، لكنه كان يضع في اعتباره دائما أنه يكتب لجمهور جزائري ولقارئ عام متوسط الثقافة.

سنحت لي فرصة اللقاء والحوار المطول مع عبد الحميد بن هدوقة حول إنتاجه وحول وضعية المثقف الجزائري بعد عشر سنوات من اللقاء السابق، وذلك لما رتبت موعدا معه في بيته لأزوره بصحبة شاب باحث هو «عمر أوهادي» الذي كان وقتئذ يهيء رسالة دكتوراه من الحلقة الثالثة في جامعة السوربون بباريس، حول رواية الجازية والدراويش. أكد لي هذا الحوار ما استخلصته قبل قليل من حواري الأول معه، ووجدته شديد الاستياء حينئذ مما آل إليه وضع المثقف الجزائري الذي أصبح يعاني من التهميش والاستبعاد المقصود من الحياة العامة للمجتمع. طرحنا يومذاك في حوارنا المسألة اللغوية في الجزائر، وقد اتضح لي أن موقفه من مسألة التكفل باللهجات الشفوية يختلف عن الموقفين المتعاكسين وقتئذ؛ موقف السلطة وموقف الحركة البربرية. لم يكن موافقا على تجاهل اللهجات تماما في المؤسسات الرسمية بدعوى المحافظة على وحدة الأداة التعبيرية للمجتمع الجزائري وهي اللغة العربية، كما أنه لم يكن متفقا مع أولئك الذين يعتبرون اللغة العربية لغة أجنبية عليها أن تتخلى عن مكانها الرسمي في المجتمع الجزائري للهجات المحلية. كان عبد الحميد بحكم نشأته الأولى في بيئة يختلط فيها مستعملو اللهجة العربية الدارجة مع مستعملي اللهجة القبائلية، وهو اختلاط في جميع المستويات الاجتماعية وكان يبدو واضحا في الوحدة القاعدية للجماعة وهي الأسرة، يتقن اللهجتين ولا يتعصب لأي منهما، كما أنه يقدر الدور الثقافي الذي يمكن أن تلعبه اللهجات في حياة المواطن مما يحتم التكفل العلمي والثقافي بها، على أن لا يكون مثل هذا التكفل على حساب اللغة العربية.

في نهاية الثمانينيات وبداية التسعينيات، اثر زلزال 5 أكتوبر، كان عبد الحميد بن هدوقة في طليعة الكتاب الذين حاولوا إعادة تنظيم هيئة اتحاد الكتاب وبعثه

من جديد. كانت هذه الهيئة قد عرفت خلال الثمانينيات تدهورا كبيرا بسبب الهيمنة السياسية للحزب الواحد، وتطبيق المادة 120 التي همشت كل كاتب لا يحمل بطاقة النضال في صفوف جبهة التحرير الوطني، وكانت في هذه الفترة أداة لبعض المحسوبين على الثقافة الجزائرية للحصول على مساكن ومهمات في الخارج ورحلات سياحية، والذين انفضوا عنها بعد أحداث أكتوبر، اثر عملية نهب لمقر الهيئة أفرغته من أثاثه ومن الكتب، وحتى الأرشيف الاداري لم يسلم من الإتلاف، وقد نسب كل ذلك فيما بعد لمظاهرات الخامس من أكتوبر! نجح نفر من الكتاب في مستهل سنة تسعين في تشكيل مكتب للهيئة المديرة لاتحاد الكتاب يتمتع نسبيا بشيء من الانسجام، عمل على أن يكون الاتحاد مستقلا عن التحزبات السياسية وأن يشرع في تحقيق برنامج طموح يرمي إلى إعادة الاعتبار لمكانة الكاتب الجزائري في المحيط الوطني والعربي. انتخب كل من رشيد بوجدرة وعبد الحميد بن هدوقة على رأس الهيئة الجديدة؛ الأول كأمين عام والثاني كنائب للأمين العام. رغم اضطراب الوضع السياسي حينئذ، وانعكاس التناقضات السياسية التي عرفها المجتمع على الهيئة المديرة لاتحاد الكتاب، استطاع مكتب هذه الهيئة أن يبادر إلى وضع خطة طموحة، وأن يشرع في اعطاء وجه مشرف للمثقف الجزائري، وكان لعبد الحميد بن هدوقة دور كبير في اضفاء روح الجدية والطابع العملي والتنظيمي ومباشرة الاتصال بالهيئات الثقافية والجهات المسؤولة التي بامكانها أن تساعد على بروز دور الاتحاد. ولما تم تعيينه على رأس مجلس الثقافة وفر ميزانية للاتحاد سمحت بسد ديونه المتخلفة من فترة الثمانينيات وتأثيث مقره وتوفير بعض الضروريات التي تسمح بقيام هذه الهيئة بدورها الثقافي، وطبع أربعة أعداد من مجلة «المساءلة» التي كان يرأس هيئة تحريرها

الأستاذ الأعرج واسيني. كما أنه سعى إلى حصول الاتحاد على مقر جديد مناسب، غير أن استقالته بعد الغاء مجلس الثقافة، لم تسمح بتحقيق هذا المطلب.

عندما استقال عبد الحميد بن هدوقة من مهمته كنائب للأمين العام لاتحاد الكتاب، وذلك بسبب اضطلاعه بمسؤولية رئاسة مجلس الثقافة ثم ادارة المؤسسة الوطنية للكتاب، خلف فراغا كبيرا في مكتب الهيئة المديرة للاتحاد، وقد بدأ تصدع هذه الهيئة بسبب غيابه عنها وبسبب الظروف التي طرأت على البلاد منذ نهاية سنة 1990.